تمهيد
فى
مناهج الكتاب فى تراجم الرجال

لِكُتَّاب الإفرنج فى تدوين تراجم رجالهم ، وتحرير حياة نوابغهم ، وتحليل سير أفرادهم ، وتخليد ذكرى أبطالهم ؛ أسلوب خاص تفردوا به ، والتزموا السير على منهاجه ، والضرب فى أنحائه وفجاجه ، قبل أن يُعنى به كاتب من كتاب العربية ، وشذ أن يُلِم بما فيه من دقائق ، وندَّ أن يحوم حول ما تضمنه من غوامض . وذلك أننا نرى الكاتب الأوربىّ يحاول فيما يتناوله من شؤون نابغه الذى يعرض للكلام عليه — سواء أكان ذلك النابغ فيلسوفا ، أم كان عالما ، أم كاتبا ، أم شاعرا ، أم كان بطلا من أبطال الحرب ، أم رجلا ممتازا بضرب من ضروب الحياة — أن ينتزع مما صار إليه شأن مترجمه فى شيخوخته وفى عهد اكتمال أيامه ، صورةً مما كان عليه فى طالعة أمره ، ومستهل نشأته ، ومبدأ طفولته . فيحمل نفسه فى هذا السبيل من صنوف العنت فى التحليل ، وألوان الإحتيال فى الاختلاق ، ما كان فى غنى عن كثير من أمثاله . إذ تراه لأقل ملابسة ولأدنى خاطرة ، يُنشئ فى وهمه خيالا يُلبسه ألوانا من دلائل طفولته ، ويَعرضه فى أطوارٍ لا عهد له بها ، متنقلا به من الطفولة إلى اليُفوعة ، ومن المُراهقة إلى الفُتوة ، ومن الشَّبوبة إلى الشيخوخة . مسترسلا فيما كانت تدل عليه حركته فى هاته الأطوار ، وما كانت تشير إليه تقلباته وتُنتجه سكناته فى أثنائها ، من حدة فى الذكاء ، أو خمود

فى القريحة ، أو توسط فى انطلقه ، أو بلوغ الغاية فى طبقات الألمعية . ثم يرسل على هذه التحولات التى تحيلها شعة من أوهام مراسته ، مُلِحّاً فى أن يبسط عليك إرادته ليقنعك ما استطاع ، بأن بداءة أمر مترجمه كانت تدل بكل معانى الدلالة على ما انتهى إليه شأنه من بُعد الصيت وذيوع الذكر ، وما احتازه من النبوغ والتفوق فيما انتحاه من أعمال الحياة

هؤلاء الكتاب وأمثالهم ومن يحذون حذوهم ، ويضربون على أوتارهم لا أستطيع أن أومن بكثير مما يعرضونه على قرائهم ، من التغلغل فى خفايا هذا الشأن ، وأحسبه من موارد خيالاتهم ومنتجات أوهامهم ، إذا أرادوا به أن يصوروه فى صورة الحقائق الثابتة . أما اذا قصدوا به التسلية والتلهية ، أو العبرة والعظة ، فلا ضير فى ذلك ولا تثريب . وقد ألتمس لهم شيئاً من العذر فى هذا المنحى لافتقارهم إلى ما عُنِيَ به كتاب العربية من الرواية والسند . وعلى الخصوص قبل أن توضع نظرية أصول وقواعد ، وقبل أن تصير مراقبة الطفل منذ عهوده بالميلاد فنا منظما من الفنون ذات الشأن والخطر

أما كتاب العربية ، فهم على الرغم من استغنائهم بالرواية المسندة ، واحتفال موادهم بالحديث المسلسل ، قلما حفلوا من أمر رجالهم الذين يعنون بترجمتهم إلا بما قد يكون عرف عنهم من تقدم أو تخلف ، ومن تفوق أو توسط ، فى انتحاء كل منهم من مناحى الحياة ومراشدها ، سواء أكانت علمية أم فنية أم صناعية . ولا يكون ذلك إلا بعد الاستحكام وعض الناجذ . وإلا بعد أن تتكون الملكة ، وتقوى الثقة ، وتظهر الموهبة . فهم فى غالب شأنهم ، لا يعرضون لشئ من ماضى نوابغهم الذين يفتتنون التعريف بهم إلا بسند متصل ، أو رواية مأثورة ، أو حديث مدوّن . فهذا ما مضى عليه أولهم وتابعهم عليه آخرهم

أما المنهج الذى وضعته نصب عينى فى دراسة الجاحظ ، وفيما أثبته ههنا من شأنه ، فهو الاعتماد على المصادر المذكورة فى آخر هذا الكتاب، وعلى غيرها من المطالعات فى شتى الأسفار . مما شذ عن الذاكرة إحصاؤه ، ونبا عنها استقصاؤه . وعلى ما استنتجته من مؤلفات الجاحظ ، وانتزعته من دلائل أغراضها ومعانيها . وبهذا أود أن أكون فى مقام وسط بين عُدّة كتّاب العربية ، وبين تزيد كتّاب الفرنجة . فلا أدعى أننى أعرض مالم يكن ، فى معرض ما يكون ، ولا أحاول النفوذ إلى علم الغيب أستخرج منه المستور وأكشف المكنون ، ولكنى سأكون فى هذا الكتاب مؤرخاً نظّاراً ، وباحثا نقّاباً . أبهرج الزائف وأظهره على حقيقته ، وأؤيد الصحيح وأقره فى منزلته ، مادام ذلك كله لا يخرج عن حد العقل ونطاق الإمكان .